كتب جديدة

ثورة على الفكر العربي المعاصر

بقلم محيي الدين محمد . المكتبة العصرية ، صيدا ، ١٩٦٤

تهنئة حارة لمحيي الدين محمد لكتابه « ثورة على الفكر العربي المعاصر » ، فهو حقا ثورة لاجل فكر عربي معاصر . ولا اكتم تقديري واعجابي بثورة هذا الاديب العربي المثقف . فقد يثور الكثيرون من ادبائنا ومثقفينا ، لكني لم المس للآن ثورة تساندها مثل ثقافة محيي الدين محمد وتقودها جرأة كجرأته على تسمية زوايا الجمود والتحجر في الذات العربية المعاصرة .

فهو يبدو في بعض فصول هذا الكتاب نمروداً يشير بصراحة ووضوح الى مناح حساسة لم يسبق الى الاشارة لها احد قبله بمثل جرأته ووضوحه . فهو كما يلاحظ على استعداد للصمود امام اي اعصار قد يهب عليه . فمرحى لهذه الجرأة ، مهما كانت عواقبها وتبعاتها ، اذ بمثلها فقط تبنى المجتمعات .

ان الكتاب مبدأ وليس مادة . هو مبدأ ما احراه بان يكون شعارا لكتابنا ومثقفينا . ففيه جرأة الفكر مع سعة الثقافة وتنوع مصادرها ووجوهها ، مما يجعل القارىء يقف باحترام امام اية فكرة فيه مهما عارض هذه الفكرة واختلف مع المؤلف في جوهرها . وهو بفصوله وتفاصيلها يؤكد على وحدة الثقافة العالمية المعاصرة في حقل الفن والفكر ، كوحدتها في مقولات العلم ومعطيات المنطق وتجارب المختبر .

الفصل الاول في الكتاب « ثورة على الفكر العربي المعاصر » توجزه هذه الفقرة : « تغيير التراث العربي جميعه ، ليمكن للعقل ان يقفز من محدودية الخرافة والتسليم والرضى ، وهو مظهر من اشد المظاهر الانسانية تعاسة وخزيا ، الى انطلاق العقل والمحاجاة وطلب تحقيق العدالة والحرية » . وفي هذا الفصل يشدد على الذهن القيادي للمفكرين والمسؤولية التي يجب ان يعيها هؤلاء في تغيير الذهن العام واخضاعه لقوانين العلم والمنطق . ولعل ابرز فكرة يمكن تنبيه المؤلف لحساسيتها هي تلك التي يدعو بها الى رفض ماضينا وحاضرنا وتاريخنا وكف الاذهان الخلاقة عن العمل وضرورة تحولها الى الترجمة (ص ٢٠) ، هذا مع العلم ان الفكر الغربي ذاته بعد صدمته بالآلية المعاصرة ، من خلال مناهجه ، اضحى يتشوق بالحاح الى ما يمكنه ان يتأتى من فكر انساني اكثر اخلاقية وصلاحا للعالم من خلال تفكيرنا التاريخي واخلاقيته المتدينة . ولكم كان البحث اعمق واكثر وعيا للمسؤولية لو ان الكاتب اتخذ موقف المراقب المحلل للنزعة المتدينة واشكال انحرافاتها المختلفة التي تعيق التقدم الاجتماعي وتحد من انسجام مجتمعاتنا مع متطلبات عصر الآلة الحديث . خاصة وان الخرافات التي كانت تستعين ببعض المتدينين لم يعد لها مكان بين غالبية المثقفين في البلاد العربية ، سوى ان استغلال الرابطة الدينية في بسطاء الشعب هو الذي دام بارز الغرضية ، كما ادرك المؤلف في نص الدستور على دين الدولة الرسمي (ص ٣٧) .

وفي الفصل الثاني « هموم الشباب » يأخذ محيي الدين محمد على الشباب المصري لاادريته وتسليمه بالامور بروح متخاذلة . ويعزو ذلك الى الروح التي تسود كليات الجامعات المصرية . وهنا يضع اصبعه على صمام المشكلة ، ويطالب الدولة بالتخطيط الواعي والتوجيه الفعال للتربية . ثم في فصل « ازمة الاديب في المجتمع » ينبه الى وطأة الوضع الاجتماعي

على الاديب وشعوره العنيف باللاحرية . وهنا نحس باصالة الكاتب ، اذ نجده وكأنه يكاد يختنق بما يريد ان يوضحه ، فيردد في نهاية الفصل بان ليست هناك قوة في الارض تمنع الاديب من التعبير والقـــول . ويأتي فصـــل « مشكلة حرية الفكر » مكملا لموضوع الحرية التي يطالب بهـــا ويلح على ضرورة وجودها . فيختم الفصل بقوله : « يحتم ان نناقش ونصرخ ونجادل ونكتب ونناقض وندافع ونستميت في سبيل اظهار الحقيقة . ولتتقدم السلطة فتسجن اجسادنا وتشنقنا ، فـــذلك بالذات هو انتصارنا ، وشرفنا » .

وهنا مع فكرة الحرية اشير الى ان الاستاذ محيي الدين محمـــد يعين نوع الحرية ، ويحصر مطالبته في عالم الفكر لاجل القضاء على تقليدية اجدادنا . وهو يرى ان لا بـــد من قتلى لهذه الغاية ، مستشهدا بمفكري اوربا الذين قاوموا سلطة الصليب البشعة والتهديد بالحرق وقتل الاطفال وبتر الالسنة والشي احياء . هـــذا مع العلم بان انتشار منطق العلم الحديث في كل مرافق الثقافة للعالم العربي المعاصر يغني عن هذه الابدال الغالية التي يرتئيها المؤلف . ولا حـــاجة لنا الا لفكر نير قوي الحجة وافر النشاط واسع الاطـــلاع ، كي نصل الى مستوى صالح لخدمة المجتمع .

ويستعرض الانسان في التاريخ – في العصور القديمـــة ، والعصور الوسطى ، ثم العصر العقلي ، والحضارة الحديثة. وفي هذا العرض يثبت ان ليس هناك من قوانين ثابتة يمكن لها ان تحمل اسم الحقيقة الثابتة : « فما هـــو حقيقي في الانسان ليس الا جدارته الشخصية في رفض كل قالب سابق عليه»(ص ٩٦) . واني لا استطيع الا اكبار نظرة المؤلف النسبية للحقائق الانسانية ، هذه النظرة التي تتيح للناس ان يفكروا بما يشاؤون وتجعل تطور الذهن الانساني العام هـــو السيد في تاريخ الانسان ، لا المقولات العقائدية .

وفي فصل عن الوجودية يقول في حديثه عـــن الفلسفة : « كانت الفلسفة في القديم تفضي امـــا الى الاخلاق المحضة ، واما الى الميتافيزيقا . اما الآن ، فان الفلسفة تعتبر نفسها ممرا الى الحرية الانسانية ».

ويبدو ان حسه الموتور نحو الحرية هـــو الذي حمله الى التمييز بين غائية الفلسفة في القديم والحديث ، فأرجو منه اعادة النظر بالتمييز بين الحـــرية والاخلاق والا وصلنا الى الحرية « المؤلهة » التي كان ينادي بها رجال الثورة الفرنسية كتهويمة مقدسة لها معابدها وطقوسها دون حدود او مدلولات . وفي خاتمة الفصل يؤكـــد بحماس ان الجواب على التباسات الفكر « سيتفجر من هنا ، من هذه الارض التي عرفت التنبؤات والاجوبة ؛ من ارض الطهر والحماسة ، سوف يطلق الشرقي من عقاله » . وهذا تفاؤل يحمد عليه لما فيه من رغبة انطلاق الى الابداع .

وفي « وجه عصرنا في القرن الغارب » يقول : « قرننا هو قرن التحول من منتهى الرخاوة العاطفية الى منتهى الصلابة الآلية » (ص ١٥٨)، كما يرى بان الفن هـــو تسجيل امين لتوترنا ، وفي الوقت نفسه ايماءة حزينة لتحولنا. ولعله من هنا ، اي من فكرته عن رسالة الفن ، ينطلق في فصول الكتاب الباقية لدراسة الآثار الفنية لعديد من الادباء والشعراء والفنانين في الغرب والشرق . ولعمري هو منطلق صحيح ينم عن قدرة نادرة على الاستقطاب والتركيز المسؤول لدى المؤلف . وبايمـــان كبير بالفن يورد قولته في صفحة ١٩٠ : « وجب على الفن ان يسهم في بتر القلق والتوتر الذي هو سبب اساسي لنكسة الفرد وتحوله الى عباداته الصنمية : العزلة ، مرض الاعصاب ، الجمود . اذ من الباطن فقط يمكن للفن ان يزيح هـــذا الحجر الثقيل من فوق القلب البشري المعذب ؛ فللفن فقط هذه القدرة السحرية التي يمكنها ان تحـــول المرارة الى فرح والتوتر الى شعور دافق بالايمان » . ومثل هـــذا القول لا يأتي الا عن ايمـــان رائع ينبعث عن حس فني اصيل يعيش في اعصاب المؤلف .

ولا شك بان هناك فصولا كثيرة هامة في الكتاب كان يمكنها ان تكون كتابا مستقلا في النقـــد والتحليل ، حيث يعرض فيها المؤلف ويحلـــل اعمالا فنية كبرى وهامة . فنكتفي بالاشارة لها بعد هذه الجولة القصيرة مع بعض الآراء الذاتية الجريئة